دور التوسع

(١٤٥٣–١٦٨٣)

ويضم كل من السلاطين بايزيد الثاني - سليم الأول (القاطع) - سليمان الأول القانوني - سليم الثاني - مراد الثالث - محمد الثالث - أحمد الأول - مصطفى الأول - عثمان الثاني - مراد الرابع - إبراهيم الأول - محمد الرابع

بايزيد الثاني

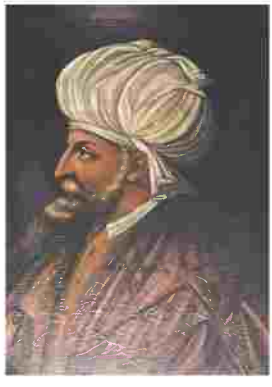

بايزيد الثاني بن محمد الفاتح هو ثامن السلاطين العثمانيين، عاش بين عامي ١٤٤٧ و١٥١٢، وتقلد الحكم منذ عام ١٤٨١، عرف عنه أنه كان يؤلف الشعر، والموسيقى ويتقن فن الخط العربي.

ولد بايزيد في القرن التاسع الهجري، وكان أكبر أولاد أبيه السلطان محمد الفاتح حكم في عهد أبيه مقاطعة أماسيا وتولى السلطنة بعد أبيه بعد أن نازعه أخوه جم عليها وحدثت خلافات في عهده بين دولته ودولة المماليك وتحاربت الدولتان حرباً ثم تم إبرام صلح بعدها.

وصلت الغزوات في عهده لدولة البندقية التي انتصر عليها، فاستنجدت بملك فرنسا والبابا، فقامت حروب صليبية بين الطرفين وظهرت في عهده دولة روسيا سنة ٨٨٦ هـ وأرسلت له سفيرها عام ٨٩٧ هـ وأجبر من قبل الإنكشارية في آخر حياته على التنازل عن الحكم لابنه سليم الأول سنة ٩١٨ هـ وهي نفس السنة التي توفي فيها.

سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح

١٠ أكتوبر ١٤٧٠ ـ٢٢ سبتمبر ١٥٢٠ م

سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين وأول من تلقب بأمير المؤمنين من خلفاء بني عثمان، يعرف لدى الغرب والبعض بسليم العابس ويلقب كذلك بياوز أي الشجاع عند الأتراك، حكم لثمانية سنوات بدءا من

عام ١٥٢٠ حتى وفاته.

كان أبوه يريد أن يولي العهد لابنه أحمد، وهو أكبر أولاده، ولكن ابنه سليم اضطره، بتأييد الجيش الإنكشاري ومكائد أمه اليهودية ليونا، أن يوليه العهد، فخلع نفسه وولاه الخلافة وتوفي بعد عشرين يوماً وكان حوله ملكين يعاديانه وقد اتفقا عليه، وهما السلطان إسماعيل الصفوي حاكم إيران، وكان شيعي المذهب، والسلطان قنصوه الغوري حاكم مصر والشام.

الحمله ضد الشاه

قام الشاه إسماعيل بنشر التشيع بالقوة في ربوع بلاد فارس، ففر الكثير من السكان وقتل الكثير ممن عارضه، ووصلت حركة التشيع إلى الأهالي الموجودين على الحدود العثمانية، وعندما علم السلطان بالأمر اتخذ منه ذريعة للحرب فأعد جيشه، وسار به بنفسه لغزو إيران بعد أن أمر بقتل كل من اعتنق التشيع من الرعايا العثمانيين.

عمد الشاه إسماعيل إلى تخريب الجسور والطرق لتأخير الجيش العثماني حتى الشتاء البارد أملاً في ثني سليم عن احتلال تبريز، فأرسل السلطان إليه ملابس نساء كهدية قاصداً تشبيهه بالنساء بسبب تجنبه لقاء جيش السلطان، فغضب إسماعيل الصفوي وآثر الخروج للقتال،

والتقيا في معركة جالديران وانتصر سليم الأول بسبب التدريب العالي للجيش العثماني واستعمال العثمانيين لأحدث التكنولوجيا الحربية، ودخل تبريز عاصمة ملكه واستولى على عرشه وخزائن ملكه وأسر زوجة الشاه المهزوم وأمر بتزويجها لأحد رجاله ليزيد ثقل هموم الشاه وحزنه وذلك في ١٤ رجب ٩٢٠ هـ ١٥١٤/٩/٤م

أراد العثمانيون اللحاق بالجيش الإيراني الذي فر إلى الجبال ولكن عدداً من قادة الانكشارية رفضوا تلبية الأوامر لشدة البرودة وعدم تجهيز الجيش لذلك، فقفل سليم عائداً إلى إسطنبول وأمر بإعدام كل من كان عارض أوامره من الانكشارية.

وقاتل قانصوه الغوري في معركة مرج دابق شمال حلب وذلك في ٢٥رجب ٩٢٢هـ (١٥١٦/٨/٢٤م)، وأبلى المماليك بلاءاً حسناً في اليوم الأول، لكنهم لم يلبثوا أن عاودوا الاختلاف فيما بينهم وقُتِلَ قنصوه الغوري بعد خيانة جان بردي الغزالي وخاير بك له وانضمامهما للجيش العثماني ثم زحف سليم على مصر مصطحباً معه آخر الخلفاء العباسيين المتوكل على الله الثالث وقاتل الملك طومان باي خليفة الغوري وقتله واستولى على مصر وولى عليها خاير بك، والشام وسلّم له الحجاز، ومنحه لقب أمير المؤمنين بمباركة الخليفة الأسير ووالده الخليفة المخلوع المستمسك بالله يعقوب.

وفي أثناء وجوده في مصر راسله خير الدين بربـاروس طالباً منه الانضواء تحت الراية العثمانية فقبل، وأصبح خير الدين قائداً عاماً للبحرية العثمانية فيما بعد وعاد السلطان سليم إلى القسطنطينية متوجاً بنصر عظيم، وكان قد وضع خطة لفتح جزيرة رودس ولم يمهله الموت فتوفي في ٩شوال ٩٢٦هـ و١٥٢٠/٩/٢٢م وخلفه ابنه السلطان سليمان الأول، وابان فترة حكم سليم الأول اتسعت مساحة الدولة العثمانية من ٢،٤ مليون كم مربع إلى ٦،٥ مليون كم مربع.

ويروي ابن إياس ان لدى خروج سليم الأول من مصر أخذ معه كميات كبيرة من الكنوز والأموال كما يروى أنه لدى احتلاله للقاهرة نقل أمهر فنانيها وحرفييها إلى إسطنبول وأصدر فرمانا يمنع اليهود من الهجرة إلى فلسطين ولسيناء عام ١٥١٨م وكان السلطان سليم شجاعاً ذكياً طموحاً عظيم الهيبة ذو عزيمة تفل الحديد ونفس تحب الغزو والجهاد وكان يميل إلى القوة ويعده المؤرخون أحد العبقريات العسكرية في التاريخ لدهاءه وإنجازاته العسكرية وكان سريع الغضب شديد البطش نادرا ما يُرى مبتسما متجهم الوجه حتى لقبه سفراء الدول الأجنبية بالعابس وقيل انه قتل أكثر من أربعة من وزرائه ووجهائه ويصفه من رآه من معاصريه بأنه كان عظيم اللحية شاحب الوجه نحيف البدن ولا يضع حلق في أذنيه كما تخيل بعض الرسامين الغربيون لأنها محرمة على الرجال عند

المسلمين وعلى الرغم من بطشه وجبروته إلا أن السلطان سليم كان يجل العلماء والأدباء ويقدمهم في مجلسه ويحسن إليهم كذلك شجع رعاياه على العلم وطلبه، كما أنه أي السلطان كان عارفاً بالفقه والشعر والتاريخ ويروى أنه كان يكتب الشعر بالفارسية توفّيَ سنة ١٥٢٠.

سليمان القانوني

(١٤٩٥م-١٥٦٦م)

سليمان القانوني بن سليم في الغرب يعرف بسليمان العظيم أحد أشهر السلاطين العثمانيين، ولد في مدينة طرابزون حين كان والده والياً عليها عاش بين عامي ٩٠٠هـ-٩٧٢هـ - ١٤٩٥م-١٥٦٦م، حكم لمدة ٤٨ عاماً منذ عام ١٥٢٠م،وبذلك يكون صاحب أطول فترة حكم بين السلاطين العثمانيين زادت مساحة الدولة العثمانية بأكثر من الضعف خلال فترة حكمه، حيث فتح شمال أفريقيا، وفي أوروبا قضى على دولة المجر وفتح بلجراد وحاصر فيينا.

والده السلطان سليم الأول ووالدته حفصة سلطان ابنة منكولي كراني خان القرم قضى السلطان سليمان القانوني ستة وأربعين عاماً على قمة السلطة في دولة الخلافة العثمانية، وبلغت في أثنائها الدولة قمة درجات القوة والسلطان؛ حيث اتسعت أرجاؤها على نحو لم تشهده من قبل، وبسطت سلطانها على كثير من دول العالم في قاراته الثلاث، وامتدت هيبتها فشملت العالم كله، وصارت سيدة العالم يخطب ودها الدول والممالك، وارتقت فيها النظم والقوانين التي تسيّر الحياة في دقة ونظام، دون أن تخالف الشريعة الإسلامية التي حرص آل عثمان على احترامها والالتزام بها في كل أرجاء دولتهم، وارتقت فيها الفنون والآداب، وازدهرت العمارة والبناء.

تولى السلطان سليمان القانوني بعد موت والده السلطان سليم الأول في ٩ شوال ٩٢٦هـ - ٢٢ سبتمبر ١٥٢٠م، وبدأ في مباشرة أمور الدولة، وتوجيه سياستها، وكان يستهل خطاباته بالآية الكريمة {إِنَّهُ مِن

سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، والأعمال التي أنجزها السلطان في فترة حكمه كثيرة وذات شأن في حياة الدولة.

في الفترة الأولى من حكمه نجح في بسط هيبة الدولة والضرب على أيدي الخارجين عليها من الولاة الطامحين إلى الاستقلال، معتقدين أن صغر سن السلطان الذي كان في السادسة والعشرين من عمره فرصة سانحة لتحقيق أحلامهم، لكن فاجأتهم عزيمة السلطان القوية التي لا تلين، فقضى على تمرد جان بردي الغزالي في الشام، وأحمد باشا في مصر، وقلندر جلبي في منطقتي قونيه ومرعش الذي كان شيعيًا جمع حوله نحو ثلاثين ألفًا من الأتباع للثورة على الدولة.

تعددت ميادين القتال التي تحركت فيها الدولة العثمانية لبسط نفوذها في عهد سليمان فشملت أوروبا وآسيا وأفريقيا، فاستولى على بلجراد سنة ٩٢٧هـ - ١٥٢١م، وحاصر فيينا سنة ٩٣٥هـ - ١٥٢٩م لكنه لم يفلح في فتحها، وأعاد الكَرّة مرة أخرى، ولم يكن نصيبها أفضل من الأولى ضم إلى دولته أجزاء من المجر بما فيها عاصمتها بودابست، وجعلها ولاية عثمانية.

وفي آسيا قام السلطان سليمان بثلاث حملات كبرى ضد الدولة الصفوية، ابتدأت من سنة ٩٤١هـ - ١٥٣٤م، وهي الحملة الأولى التي

نجحت في ضم العراق إلى الدولة العثمانية وفي الحملة الثانية سنة ٩٥٥هـ - ١٥٤٨م أضيف إلى أملاك الدولة تبريز، وقلعتا: وان وأريوان أما الحملة الثالثة فقد كانت سنة ٩٦٢هـ - ١٥٥٥م وأجبرت الشاه طهماسب على الصلح وأحقية العثمانيين في كل من أريوان وتبريز وشرق الأناضول.

وواجه العثمانيون نفوذ البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج العربي، فاستولى أويس باشا والي اليمن على قلعة تعز سنة ٩٥٣هـ ١٥٤٦م، ودخلت عُمان والأحساء وقطر والبحر تحت نفوذ الدولة العثمانية، وأدت هذه السياسية إلى الحد من نفوذ البرتغاليين في مياه الشرق الأوسط وفي أفريقيا، دخلت ليبيا والقسم الأعظم من تونس، وإريتريا، وجيبوتي والصومال، ضمن نفوذ الدولة العثمانية.

كانت البحرية العثمانية قد نمت نموًا كبيرًا منذ أيام السلطان بايزيد الثاني، وأصبحت مسؤولة عن حماية مياه البحار التي تطل عليها الدولة، وفي عهد سليمان ازدادت قوة البحرية على نحو لم تشهده من قبل بانضمام خير الدين بربروسا، وكان يقود أسطولاً قويًا يهاجم به سواحل أسبانيا والسفن الصليبية في البحر المتوسط، وبعد انضمامه إلى الدولة منحه السلطان لقب قبودان وقد قام خير الدين - بفضل المساعدات التي كان يتلقاها من السلطان سليمان القانوني- بضرب السواحل الإسبانية،

وإنقاذ آلاف من المسلمين في أسبانيا، فقام في سنة ٩٣٥هـ - ١٥٢٩م بسبع رحلات إلى السواحل الأسبانية لنقل سبعين ألف مسلم من قبضة الحكومة الإسبانية.

وقد وكل السلطان إلى خير الدين قيادة الحملات البحرية في غرب البحر المتوسط، وحاولت أسبانيا أن تقضي على أسطوله، لكنها أخفقت في كل مرة وتكبدت خسائر فادحة، ولعل أقسى هزائمها كانت معركة بروزة سنة ٩٤٥هـ - ١٥٣٨م وقد انضم أسطول خير الدين إلى الأسطول الفرنسي في حربه مع الهابسبورج، وساعد الفرنسيين في استعادة مدينة نيس ٩٥٠هـ - ١٥٤٣م واتسع نطاق عمل الأسطول العثماني فشمل البحر الأحمر، حيث استولى العثمانيون على سواكن ومصوع، وأخرجوا البرتغاليين من مياه البحر الأحمر، واستولى العثمانيون على سواحل الحبشة؛ مما أدى إلى انتعاش حركة التجارة بين آسيا والغرب عن طريق البلاد الإسلامية.

كان السلطان سليمان القانوني شاعراً له ذوق فني رفيع، وخطاطاً يجيد الكتابة، وملماً بعدد من اللغات الشرقية من بينها العربية، وكان له بصر بالأحجار الكريمة، مغرماً بالبناء والتشييد، فظهر أثر ذلك في دولته، فأنفق بسخاء على المنشآت الكبرى فشيد المعاقل والحصون في رودس وبلجراد وبودا، وأنشأ المساجد والصهاريج والقناطر في شتى أنحاء

الدولة، خاصة في دمشق ومكة وبغداد، غير ما أنشأه في عاصمته من روائع العمارة ويؤكد الباحث جمال الدين فالح الكيلاني أن عصر السلطان سليمان القانوني يعتبر العصر الذهبي للدولة العثمانية حيث كانت الدولة الأقوى في العالم والمسيطرة على البحر الأبيض المتوسط وظهر في عصره أشهر المهندسين المعماريين في التاريخ الإسلامي، سنان آغا، الذي اشترك في الحملات العثمانية، واطّلع على كثير من الطرز المعمارية حتى استقام له أسلوب خاص، ويعد مسجد سليمان القانوني أو جامع السليمانية في إسطنبول الذي بناه للسلطان سليمان في سنة ٩٦٤هـ - ١٥٥٧م من أشهر الأعمال المعمارية في التاريخ الإسلامي.

وفي عهده وصل فن المنمنمات العثمانية إلى أوجه وقد قدّم عارفي وثائق الحوادث السياسية والاجتماعية التي جرت في عصر سليمان القانوني في منمنمات زاهية، ولمع في هذا العصر عدد من الخطاطين العظام يأتي في مقدمتهم: حسن أفندي جلبي القره حصاري الذي كتب خطوط جامع السليمانية، وأستاذه أحمد بن قره حصاري، وله مصحف بخطه، يعد من روائع الخط العربي والفن الرفيع، وهو محفوظ بمتحف طوبي قابي وظهر في عهد السلطان سليمان عدد من العلماء، في مقدمتهم أبو السعود أفندي صاحب التفسير المعروف باسم إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم.

غير أن الذي اشتهر به واقترن باسمه هو وضعه للقوانين التي تنظم الحياة في دولته الكبيرة هذه القوانين وضعها مع شيخ الإسلام أبو السعود أفندي، وراعى فيها الظروف الخاصة لأقطار دولته، وحرص على أن تتفق مع الشريعة الإسلامية والقواعد العرفية، وقد ظلت هذه القوانين التي عرفت باسم قانون نامه سلطان سليمان، أي دستور السلطان سليمان، وطبق حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي.

ولم يطلق الشعب على السلطان سليمان لقب القانوني لوضعه القوانين، وإنما لتطبيقه هذه القوانين بعدالة، ولهذا يعد العثمانيون الألقاب التي أطلقها الأوروبيون على سليمان في عصره مثل: الكبير، والعظيم، قليلة الأهمية والأثر إذا ما قورنت بلقب القانوني الذي يمثل العدالة ولم يكن عهد القانوني الذي بلغت فيه الدولة أقصى حدود لها من الاتساع، وإنما هو العهد الذي تمت فيه إدارة أعظم دولة بأرقى نظام إداري.

وقام سليمان القانوني بالعديد من أعمال التشييد، ففي عصره بني جامع السليمانية الذي بناه المعماري سنان، كما قام بحملة معمارية في القدس من ضمنها ترميم سور القدس الحالي كما عرف بسنّه قوانين لتنظيم شؤون الدولة عرفت باسم قانون نامه سلطان سليمان أي دستور

السلطان سليمان، وظلت هذه القوانين تطبق حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وكان ذلك مصدر تلقيبه بالقانوني ولقد سماه الفرنجه بسليمان العظيم ويعرف أيضا بلقب سليمان المشرع.

وفاته

سليم الثاني بن سليمان القانوني (٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م-٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م) هو الخليفة العثماني الحادي عشر وكان شاعراً أمه هي روكسلان الروسية تولى الحكم بعد أبيه عام ٩٧٤ هـ/١٥٦٦ قامت أمه وهو معها بتحريض أبيه على قتل أبنية الآخرين من زوجة أخرى لينفرد بالحكم.

كان ضعيفا أعطى العديد من سلطاته لوزرائه، وعندما امتنع عن إعطاء العطايا للجنود أظهروا العصيان، فاضطر إلى العطاء ويرى البعض أنه لولا هيبة الدولة في السابق وقوة وزيره محمد الصقلي لسقطت الدولة عقد صلحا مع النمسا يعترف فيه بأملاكها في المجر مقابل دفع جزية سنوية للسلطنة وجدد المعاهدات مع بولونيا وفرنسا بدأت فرنسا في عهده ترسل إرساليات مسيحية كاثوليكية إلى رعاياها في الدولة العثمانية وبذلك بدأ العمل ضد العثمانيين من الداخل وتربية النصارى على الارتباط بفرنسا.

قامت ثورة في اليمن بإمرة المطهر بن شرف الدين فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة عثمان باشا ودعمه سنان باشا والي مصر فقضى على الثورة عام ٩٧٦ هـ وتم في عهده فتح قبرص عقد البابا حلفا مع أسبانيا والبندقية ضد العثمانيين وأيدهم رهبان جزيرة مالطة وانتصروا على العثمانيين في موقعة بحرية ولكن النصارى اختلفوا فعرضت البندقية الصلح وتم الصلح عام ٨٠هـ واحتلت أسبانيا تونس عام ٩٨٠هـ ثم استعادها العثمانيون بعد ثمانية أشهر وقضى على تمرد في إمارة البغدان عام ٩٨١هـ وتوفى في ٢٧ شعبان عام ٩٨٢هـ بعد حكم ثمانية أعوام ويذكر المؤرخون الغربيون أن سبب وفاته إفراطه الشديد في تناول الخمر ويقول المؤرخون المسلمون سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام ،فسقط منها سقطه عظيمة ،وليس كما يدعيه الغربيون الذين يكيدون له ، مرض منها أياما ثم توفي سنة ٥٧٤ م ٠

مراد بن السلطان سليم بن

سليمان القانوني

أحد خلفاء الدولة العثمانية ولد عام ٩٥٣ هـ وتولى الخلافة عام ٩٨٢ هـ بعد وفاة أبيه، وبعد أن تولى السلطة أمر بمنع شرب الخمر، ولكن ثورة الإنكشارية أجبرته على ترك هذا القرار أدخل بولونيا تحت حماية الدولة العثمانية عام ٩٨٣ هـ، وجددت الدول الأوروبية (فرنسا

والبندقية) امتيازاته وحدثت ثورة في مراكش في عهده، استعان فيها زعماء الثورة بالبرتغاليين النصارى بينما طلب سلطان مراكش المساعدة من الخليفة العثمانى فأرسل قوة انتصرت على البرتغاليين والثوار وأعيد السلطان الشرعي إلى حكمه.

استغل العثمانيون وفاة طهماسب شاه الدولة الصفوية عام ٩٨٤ هـ ومقتل ابنه فوجهوا جيشا لاحتلال الكرج ودخلوا عاصمتها تفليس عام ٩٨٥ هـ ثم أكملوا المسير نحو شروان في أذربيجان الشمالية فدخلوها عام ٩٨٦ هـ طلب العثمانيون من خان القرم أن يساعدهم في محاربتهم للصفويين، إلا أنه رفض، فوجهوا جيوشهم لتأديبه إلا أن تلكم الجيوش أنهكت وتمت محاصرتها ثم قام عثمان باشا قائد الجيش العثماني بوعد أخو الخان بالحكم إن هو ساعدهم فقام بقتل أخيه الخان بالسم، فدخل عثمان باشا كافا عاصمة الخان عين عثمان باشا لدى عودته لإستانبول صدرا أعظما .

انهزم الصفويون في معارك عدة أجبرتهم على التنازل عن عدة ولايات من دولتهم للعثمانيين وحدثت ثورة قام بها أفراد من أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا وانضموا إلى النمسا فسار إليهم سنان باشا الصدر الأعظم ودخل بوخارست عاصمة الأفلاق ولكن أمير الأفلاق

استطاع أن ينتصر في النهاية وانسحب العثمانيون إلى ما بعد نهر الدانوب وخسروا عدة مدن توفي الخليفة مراد الثالث عام ١٠٠٣ هـ.

محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني

(٩٧٤هـ-١٠١٢ هـ/ ١٥٦٦ -١٦٠٣ م)

هو الخليفة العثماني الثالث عشر،أمسك زمام الحكم عام ١٥٩٥، كان شاعراً وهو ابن جارية بندقية الأصل، اشتراها السلطان مراد واصطفاها لنفسه وكانت ذات أثر كبير في السياسة في بداية حكمه ترك تسيير شؤون الدولة الداخلية لوزرائه ، وبعدما بدأت الدولة تتخبط لاسيما بعد اندلاع الحرب مع النمسا قاد الجيش بنفسه ، ولم يحدث أن قام سلطان عثماني بقيادة الجيوش بنفسه منذ عهد سليمان القانوني وانتصر على المجر والنمسا في موقعة كرزت عام ١٠٠٥ هـ ثم قام تمرد في الأناضول أثاره جنود هاربون من معركة كرزت كانت الدولة قد نفتهم إلى الأناضول، فحاصرتهم الجيوش العثمانية، فاستسلم قائدهم مقابل أن يصبح والياً على أماسيا فوافق الخليفة إلا أنه عاد وقام بثورة جديدة فقتل رئيس المتمردين وتولى أخوه من بعده قيادة الثورة، فأعطي ولاية البوسنة.

وقامت ثورة أخرى هي ثورة الخيالة (السباه) في إستانبول لأن الدولة لم تستطع تعويضهم مالياً عما فقدوه من اقطاعات في البلقان فاستعانت الدولة بالإنكشارية لتقضي على الثورة وقضت عليها بالفعل بعد أن أفسدوا ونهبوا المساجد وغيرها مما وصلت أيديهم إليه توفي عام ١٠١٢ هـ.

أحمد الأول بن محمد بن مراد

(٩٩٨ -١٠٦٢ هـ/ ١٥٩٠ م-١٦١٧م)

السلطان العثماني الرابع عشر، كان شاعراً وله ديوان مطبوع، وصل إلى الحكم عام ١٦٠٣م كان عهده عهد حروب وتمردات وثورات ضد دولته.

تولى الحكم وهو فى الرابعة عشر قامت في فترة حكمه حركات تمرد ضد الدولة العثمانية مثل حركة جان بولاد الكردي الذي هزم واضطر إلى الفرار إلى إيطاليا قام الشاه عباس ملك الصفويين باحتلال عدة مدن تتبع الدولة العثمانية فاضطر أحمد الأول إلى إجراء صلح بين العثمانيين والصفويين، يفقد فيه العثمانيون كل ما ضمه سليمان القانوني من أراض في تلك الجهات أيضا عقدت الدولة العثمانية صلحا في عهده مع النمسا تخلصت فيه النمسا من الجزية السنوية التي كانت تدفعها للدولة العثمانية

وجرت في عهده حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن أوروبا وكانت في الأغلب تنتهى لصالح أوروبا.

جدد امتيازات الدول الأوربية مثل فرنسا وإنجلترا وهولندا.

مصطفى بن محمد بن مراد

ابن سليم بن سليمان بن سليم بن بايزيد بن محمد الفاتح

تولى حكم الدولة العثمانية سنة ١٦١٧، وفي سنة ١٦١٨ عزله ابن اخيه عثمان الثاني، إلا إنه رجع إلى الحكم مره أخرى بعد أن قتل الإنكشارية عثمان الثاني سنة ١٦٢٢ فحكم سنه واحده ثم عزله ابن اخيه مراد الرابع بن أحمد الأول سنة ١٦٢٣.

السلطان عثمان الثاني

هو عثمان بن أحمد بن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم بن بايزيد بن محمد الفاتح خرج على عمه السلطان مصطفى الأول وعزله وأخذ السلطه منه سنة ١٦١٨ وتولاها إلى أن قتله الإنكشارية في ٢٠ مايو ١٦٢٢.

السلطان مراد الرابع

(١٦١٢-١٦٤٠م)

مراد الرابع بن أحمد بن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد بن محمد الفاتح

هو الخليفة العثماني الثامن عشر، حكم ١٧ عاما منذ عام ١٠٣٢ هـ/ وكان عمره آنذاك ١١ عاماً ضم بغداد للدولة العثمانية عام ١٦٣٩ م كان مولعاً بالشعر كما كان موسيقياً مميزاً.

تولى أمر الخلافة بعد عزل عمه مصطفى الأول عام ١٠٣٢ هـ وهو صغير فسيطر عليه الإنكشارية في بداية الأمر وحدث تمرد في بغداد فأرسل الخليفة جيشاً إليها ولكن الصفويين دخلوا بغداد واستولوا عليها، وبعد وفاة الشاه عباس وتولى ابنه الصغير مكانه استغل العثمانيون الفرصة وحاصروا بغداد ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحامها.

تولى السلطان مراد الرابع عرش الدولة العثمانية، والأخطار تحدق بها من الداخل والخارج؛وكانت فرق الإنكشارية تعبث بمصالح البلاد العليا، وتعيث في الأرض فساداً، حتى إنهم قتلوا السلطان عثمان الثاني وكان على الرغم من صغر سنه يحاول أن ينهض بالدولة، ويبث فيها روح الإصلاح، ويبعث الحياة في مؤسسات الدولة التي شاخت وهرمت، لكن الإنكشارية لم يمكنوه من ذلك، واعترضوا طريقه، وتدخلوا فيما لا يعنيهم، فلم يجد السلطان مفرا من تقليص نفوذهم، وقمع تمردهم، ولو كان ذلك بتصفية وجودهم العسكري، لكنهم كانوا أسبق منه، فأشعلوا ثورة في عاصمة الخلافة في (رجب ١٠٣١هـ مايو ١٦٢٢م) عرفت في التاريخ بالهائلة العثمانية راح ضحيتها السلطان الشاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة.

وبعد مقتل السلطان ولّوا السلطان مصطفى الأول وكان لا يملك من أمره شيئا، وصارت مقاليد البلاد في يد الإنكشارية، وعمّت أرجاء الدولة الفوضى والاضطرابات، وظلت ثمانية عشر شهراً دون أن تجد يداً حازمة تعيد للدولة أمنها وسلامتها واستمراراً لهذا العبث قام الإنكشارية بعزل السلطان مصطفى الأول وولوا مكانه ابن أخيه السلطان مراد الرابع بن أحمد الأول، وكان حدثًا لا يتجاوز الثانية عشرة، فصارت أمه كوسم مهبيكر نائبة السلطنة، تقوم بالأمر دونه، لكن مقاليد الأمور كانت بيد

الإنكشارية التي علا شأنها وازداد نفوذها، واطمأنت إلى أن السلطنة في يد ضعيفة.

عانت الدولة العثمانية في الفترة الأولى من ولاية مراد الرابع عدم الاستقرار واستمرار الاضطرابات والفوضى الداخلية التي تجاوزت عاصمة الخلافة إلى أطرافها؛ حيث أعلن والي طرابلس الشام استقلاله، وطرد الإنكشارية من ولايته، وفعل الشيء نفسه أباظة باشا والي أرضروم، واستولى على أنقرة وصادر إقطاعيات الإنكشارية.

وانتهزت الدولة الصفوية هذه الفوضى التي عمّت الدولة العثمانية فاستولت على بغداد، وحاولت الدولة أن تستردها، فبعثت جيشاً يقوده الصدر الأعظم حافظ باشا فحاصر المدينة وضيق عليها الخناق، ولكن دون جدوى فتذمّر الإنكشارية، وأجبروا الصدر الأعظم على رفع الحصار والعودة إلى الموصل، ومنها إلى ديار بكر، وهناك ثارت عليه الإنكشارية، فعزله السلطان حتى تهدأ الأوضاع، وعين مكانه خليل باشا الذي سبق أن تولى هذا المنصب قبل ذلك، لكنه لم يستمر طويلا، وخلفه خسرو باشا سنة (١٠٣٥هـ - ١٦٢٧م) وبعد تولّيه الصدارة اتجه إلى أرضروم، ونجح في إجبار أباظة باشا على التسليم، والدخول في طاعة الدولة، سنة (١٠٣٧هـ ١٦٢٩م) لكنه لم يفلح في استرداد بغداد، واضطر إلى رفع الحصار عنها في سنة (١٠٣٩هـ ١٦٣١م) وفي طريق العودة عزله

السلطان مراد الرابع وأعاد حافظ باشا إلى منصب الصدارة مرة أخرى كان خسرو باشا ظلومًا باطشًا، يستند في سلطانه على جماعة الإنكشارية في إستنبول التي يوجهها كما يشاء، فلما عزله السلطان أراد أن يكيد له، فأوعز إلى رؤساء الإنكشارية أن السلطان لم يعزله إلا لوقوفه إلى جانبهم وتعاطفه معهم، فثارت الإنكشارية في العاصمة، وطالبت السلطان بإعادة خسرو باشا إلى منصبه، لكن السلطان رفض مطلبهم، فاشتعلت ثورتهم في (١٩ رجب ١٠٤١هـ ١٠ من فبراير ١٦٣٢)، وقتلوا حافظ باشا أمام السلطان الذي لم يستطع أن يبسط حمايته عليه، ويدفع عنه أذاهم.

كان السلطان يعلم أن خسرو باشا وراء هذه الثورة؛ فأمر بالقبض عليه، لكنه لم يذعن للأمر ورفض التسليم، وكانت هذه أول مرة في التاريخ العثماني يعترض وزير على أمر سلطاني، لكن القوات المكلّفة بالقبض عليه حاصرته في قصره، وقتلته في (١٩ من شعبان ١٠٤١ هـ ١١ من مارس ١٦٣٢م) وفي اليوم الثاني أشعل الإنكشاريون ثورة هائلة أمام باب سراي السلطان؛ في محاولة لإرهاب السلطان وإفزاعه، لكنه واجه التمرد بالحزم، ورفض مطالبهم، واجتمع بالديوان والعلماء وأعلن أن الفوضى تغلغلت في كيان الدولة، وأن الجيش أصبح لا يحارب، وصار الجندي لا يؤدي واجبه لتدخله في سياسة الدولة، وهدد بأنه لن يتردد في البطش بمن لا يطيعه مهما كان ذلك الشخص.

انتهت فترة نيابة السلطانة كوسم التي دامت نحو تسع سنوات، وأصبح مراد الرابع طليق اليد في إدارة شؤون الدولة، بعد أن ضرب بيد من حديد على الثائرين، وقتل كل من ثبت أن له علاقة بالفتنة، فسكنت الثورة واستقرت الأوضاع، وبدأ السلطان في اتخاذ الإجراءات التي تعيد النظام إلى الدولة؛ حتى يفرغ لاستعادة ما فقدته الدولة من أراضيها.

خرج السلطان بنفسه على رأس حملة كبيرة إلى بلاد فارس سنة (١٠٤٥ هـ ١٦٣٥م) وكان النظام يسود فرق الجيوش البالغة نحو ٢٠٠ ألف جندي، فأعاد الانضباط، وما كانت عليه الجيوش العثمانية في أيام سليمان القانوني من ضبط ونظام واستهل الجيش انتصاراته بفتح مدينة أريوان في الشمال الغربي من إيران في ٢٥ صفر ١٠٤٥ هـ ١٠ أغسطس ١٦٣٥م ثم قصد مدينة تبريز ففتحها في ٢٨ ربيع الأول ١٠٤٥هـ ١٠ سبتمبر ١٦٣٥م، ولم يواصل الجيش فتوحاته في إيران؛ إذ عاد السلطان إلى بلاده طلبًا للراحة.

وما كاد السلطان يستقر في إستنبول حتى عاود الصفويون القتال، فاستردوا أريوان بقيادة الشاه صافي بعد حصار لها دام ثلاثة أشهر، واستعادوا مدينة تبريز مع أجزاء كبيرة من أذربيجان فاستنفرت هذه الأخبار حماس السلطان الشاب، فخرج في جيش كبير أحسن إعداده، واتجه إلى بغداد، وشرع في حصارها في ٨ رجب ١٠٤٨ هـ ١٥نوفمبر

١٦٣٨م وكان في المدينة المحاصرة حامية كبيرة تبلغ ٤٠٠٠٠ جندي، ولم يستطع الشاه الإيراني الاقتراب من الجيش العثماني، واعتمد على قوة جيشه المرابط في المدينة، وأبراج قلعتها الحصينة، لكن ذلك لم يغن عنها شيئا، فسقطت المدينة بعد حصار دام تسعة وثلاثين يوماً، في ١٨ شعبان ١٠٤٨ هـ ٢٥ ديسمبر ١٦٣٨م، وعادت المدينة إلى الدولة العثمانية بعد أن بقيت في يدي الصفويين خمسة عشر عاماً.

بعد ذلك رغب الشاه الصفوي في الصلح، وعرض على الدولة العثمانية أن يترك لها مدينة بغداد مقابل أن تترك له مدينة أريوان، ودارت المفاوضات بينهما نحو عشرة أشهر، انتهت بعقد الصلح بينهما في ٢١ جمادى الأولى ١٠٤٩هـ ١٩ سبتمبر ١٦٣٩م.

وتوفي السلطان في ١٦شوال ١٠٤٩ هـ ٨ فبراير ١٦٤٠م وكانت سنه قد تجاوزت السابعة والعشرين بستة أشهر، ولم يترك ولدًا.

ويُعدّ السلطان مراد الرابع من كبار سلاطين الدولة العثمانية، نجح في إعادة النظام إلى الدولة، وأعاد الانضباط إلى الجيش، وأنعش خزانة الدولة التي أنهكت نتيجة القلاقل والاضطرابات، ومدّ في عمر الدولة نحو نصف قرن من الزمان وهي مرهوبة الجانب، قبل أن تتناوشها أوروبا بحروبها المتصلة.

لكن يؤخذ عليه أنه في سبيل ذلك استعان بوسائل استبدادية، حتى قيل إنه قتل عشرين ألفا في سبيل تأمين النظام في الدولة .

إبراهيم الأول

(١٦١٥ م - ١٦٤٨م)

الخليفة العثماني التاسع عشر.

جلس السلطان على العرش بعد وفاة أخيه مراد الرابع في (١٦ من شوال ١٠٤٩هـ - ١٦٤٠م)، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وقضى فترة إمارته في عهد أخويه المخيفين عثمان الثاني ومراد الرابع بعيداً عن أي مهام، وشاهد مقتل إخوته الأربعة الكبار، وبقي ينتظر مثل مصيرهم، وهذا جعله عصبياً ومضطرباً لا يستقر على شيء، كما أنه لم يكمل تحصيله العلمي، ولم تتوافر له المهارة العسكرية بسبب العزلة التي فرضت عليه، وفي بداية حكمه حاول أن يكون مثل أخيه السلطان مراد الرابع، ولكن لم تكن له صفاته؛ فاضطربت أمور الدولة، وتوالى عزل الصدور العظام أو قتلهم، ولأن الدولة كانت قد استعادت هيبتها في عهد سلفه مراد الرابع فإن قصور إمكانات السلطان وضعف سياسته لم تؤثر تأثيراً قوياً في جسد الدولة الكبير.

في سبيل حصول السلطان إبراهيم على ولي عهد له ينقذ أسرة بني عثمان من الانقراض قضى معظم وقته مع الجواري الحسناوات، وكانت والدته السلطانة كوسم تدفعه في هذا الطريق؛ حتى يمكنها التدخل في شئون الدولة، وليس أدل على انصرافه إلى حياة اللهو والمتعة من إنجابه أكثر من ١٠٠ ابن له، وصار مثل السلطان مراد الثالث الذي أشتهر بإنغماسه في اللهو، وشغفه بالنساء إلى حد السّفه.

وكان من شأن الحياة المترفة اللاهية التي انغمس فيها السلطان أن تدخلت سيدات الحريم السلطاني في شئون الدولة، وتغلغل نفوذهن في أجهزة الحكومة، وبلغ تأثيرهن إلى الحد الذي جعل السلطان إبراهيم يقتل الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا، ولم تشفع له بسالته في محاربة الدولة الصفوية، ثم يقتل يوسف باشا قائد الحملة البحرية على جزيرة كريت وفقدت الدولة بهذا التصرف الرجال الأكْفاء الذين تقوم على أكتافهم إدارة أمورها، وحل محلهم من لا قدرة لهم ولا شأن، وزاد الأمور سوءًا وفاة شيخ الإسلام يحيى أفندي؛ ففقدت الدولة عنصراً مهمّاً من عناصر التوازن الكبيرة، وأصبح السلطان ذو الخبرة القليلة فريسة حاشية ضعيفة دفعته إلى حياة اللهو.

وبلغت السفاهة بالسلطان أنه اعتزم مرتين قتل جميع المسيحيين في إستانبول، لولا أن وقف في وجهه أسعد زاده أبو سعيد أفندي شيخ الإسلام، وحذره من الإقدام على مثل هذا العمل.

ورغم الحالة السيئة التي كانت عليها أجهزة الحكومة، وتغلغل نفوذ نساء القصر؛ فإن الدولة ظلت قوية لم تتأثر كثيرًا بتخبط السلطان وكبار رجاله، وقام السلطان في وقت تيقظه وانتباهه لتبعات منصبه بغزو جزيرة كريت، وكان استقلالها عن نفوذ الدولة أمرًا يدعو للدهشة؛ فدولة كبرى مثل الدولة العثمانية التي لها أسطول دائم في المحيط الأطلسي تترك جزيرة كريت التي تقع في متناول يدها خاضعة لجمهورية البندقية.

وحدث أن وقعت سفينة عثمانية تحمل رجالاً ونساء وأطفالاً في أيدي فرسان القديس يوحنا وكان مقرهم جزيرة مالطة، وكانت السفينة في طريقها إلى الحجاز، وقام هؤلاء القراصنة بقتل الرجال وسبي النساء، وتنصير الأطفال؛ ليكونوا في زعمهم جنودًا من جنود المسيح يحاربون ويقتلون المسلمين في أعالي البحار ونتيجة لهذا قررت الدولة الاستيلاء على جزيرة كريت، ودأب السلطان إبراهيم على زيارة الترسانة البحرية، والإشراف على الاستعدادات، وأعطى القيادة العليا لمشير البحر الوزير يوسف باشا، وتحركت الحملة في ٥ ربيع الأول ١٠٥٥هـ ٣٠ إبريل ١٦٤٥م)، وكانت تضم ١٠٦ سفن و٣٠٠ ناقلة جنود، وما يزيد على

٧٠ ألف جندي، وفي الطريق توقفت في نافارين، ثم وصلت الحملة إلى كريت، وضربت حصاراً حول قلعة كانية، واستسلمت القلعة على الرغم من تحصينها وقوة دفاعاتها، غير أن الحملة لم تتمكن من السيطرة على الجزيرة كلها، وتركت قوة تعدادها ١٢٠٠٠ جندي للمحافظة على كانية وحمايتها، ومواصلة فتح الأجزاء المتبقية في الجزيرة، وفي السنة التالية فرض العثمانيون حصاراً حول كنديا عاصمة الجزيرة، لكن حال دون فتحها تمرد الجنود الإنكشارية.

ازدادت أحوال الدولة سوءاً، واضطربت ماليتها، ونزع الإنكشارية إلى التكتل والتدخل في شئون الدولة، وحاول السلطان إبراهيم أن يقمع الفتنة، ويتخلص من زعماء الإنكشارية بعد أن علا صوتهم، وازداد تدخلهم في شئون الدولة، وتركوا مهمتهم الأصلية في الدفاع عن الدولة ومهاجمة أعدائها إلى التذمر وانتقاض أعمال السلطان، والقيام بالسلب والنهب.

وعندما علم زعماء الإنكشارية بعزم السلطان، تحركوا سريعاً وأعلنوا ثورتهم، وعاونهم فيها شيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي وبعض العلماء، وكانت السلطانة الوالدة كوسم مهبيكر تقف وراء الثورة، واتفق الجميع على عزل السلطان وتولية ابنه محمد الرابع، ولم يكن قد أتم السابعة من عمره، ووقعت هذه الثورة في ١٨ رجب ١٠٥٨هـ ٨ أغسطس ١٦٤٨م،

وتحقق لها خلع سلطان غير قدير إلى حد كبير، ولا يصلح لتولي مسئولية دولة عظيمة كالدولة العثمانية، غير أن وجوده كان سيمنع على الأقل كثيراً من التصرفات السيئة إذا ما قورن بالنتائج السيئة التي ستترتب على جلوس طفل صغير على عرش دولة كبيرة.

وبعد عشرة أيام من عزله قرر العصاة الذين قاموا بهذه الفتنة قتله حين تنادى بعض رجال الدولة بضرورة عودته، لكن ذلك لم يكن في صالحهم، وكان عمر السلطان حين قتل خنقاً قد بلغ الثالثة والثلاثين، ودُفن في قبره الموجود في رواق جامع آيا صوفيا إلى جانب عمه مصطفى الأول.

السلطان محمد الرابع

في الأيام الأخيرة من حكم السلطان العثماني إبراهيم خان الأول ساءت أحوال الدولة وازدادت الأمور سوءًا، واضطربت مالية البلاد، ونزع الجنود الإنكشارية إلى التدخل في شئون الحكم وعمت الفوضى والقلاقل، وحاول السلطان أن يعيد الأمور إلى نصابها ويقمع حالة الفوضى التي اجتاحت العاصمة إستانبول،

ويقضي على رؤوس الفتنة من الإنكشاريين الذين تخلوا عن وظيفتهم في الدفاع عن البلاد، وتفرّغوا لمناهضة السلطان، لكن السلطان لم ينجح في عزمه، وكان الإنكشاريون أسرع منه، فاشتدت ثورتهم التي اندلعت في ٨ رجب ١٠٥٨هـ ٨ أغسطس ١٦٤٨م، ولم تنته ثورتهم إلا بخلع السلطان وتولية ابنه محمد بدلاً منه في منصب الخلافة.

كان السلطان محمد الرابع حين جلس على عرش الدولة في السابعة من عمره، فقد ولد في ٢٩ رمضان ١٠٥١هـ ١ يناير ١٦٤٢م، ولما كان صغيراً فقد تولت جدته كوسم مهبيكر نيابة السلطنة، وأصبحت مقاليد الأمور في يديها، واستمرت فترة نيابتها ثلاث سنوات، ساءت فيها أحوال الدولة وازدادت سوءًا على سوء، واستبد الإنكشارية بالحكم، وسيطروا على شئون الدولة، وتدخلوا في تصريف أمورها، ولم يعد لمؤسسات الدولة معهم حول ولا قوة، وقد أطلق المؤرخون على هذه الفترة سلطنة الأغوات.

وبعد وفاة السلطانة الجدة سنة ١٠٦٢هـ ١٦٥١م لم يكن محمد الرابع قد بلغ السن التي تمكنه من مباشرة سلطاته وتولي زمام الأمور، فتولت أمه السلطانة خديجة تاريخان نيابة السلطنة، وكانت شابة في الرابعة والعشرين، اتصفت على صغرها برجاحة العقل واتزان الرأي، ذات رأي وتدبير، تحرص على مصالح الدولة العليا التي أصبحت تعصف

بها أهواء الإنكشارية، ولذا شغلت نفسها بالبحث عن الرجال الأكفاء الذين يأخذون بيد الدولة، ويعيدون إليها هيبتها، وكانت تأمل في أن تجد صدراً أعظم قديراً يعتمد عليه السلطان في جلائل الأعمال، حيث توالى على هذا المنصب كثير من رجال الدولة الذين عجزوا عن الخروج بدولتهم من محنتها الأليمة.

ووجدت السلطانة الشابة ضالتها المنشودة بعد خمس سنوات من البحث الدءوب في محمد باشا كوبريللي، وهو من أصل ألباني، قوى الشكيمة، ورجل دولة من الطراز الأول، فاشترط لنفسه قبل أن يتولى هذا المنصب الرفيع أن يكون مطلق اليد في مباشرة سلطاته وألا تُغلّ يده، فقبلت السلطانة هذا الشرط؛ حرصاً على مصالح الدولة، ورغبة في أن يعود النظام والهدوء إلى مؤسسات الدولة وفى ليبيا الخاضعة للحكم العثماني كانت تعم الفوضي فى عهد الداي عثمان الساقزلي إلي أن نجح أمير حامية طرابلس أحمد القرمانلي وهو ذو أصول لعائلة قادمة من قرمان بالانقلاب والاستيلاء علي طرابلس الغرب ليؤسس حكم الأسرة القرمانلية أما خارج أسوار مدينة طرابلس فكانت السيطرة فيها لرجال البادية وكان الحاكم الشهير عبد الرحمن الجبالي شريف أولاد سالم له معارك شهيرة مع ابن جميل حاكم فزان وسيف النصر الأول والمرامير وكانت تخضع له العربان بالبادية من ساحل الأحامد إلي الجبل الأخضر

ومقرة قصر الجبالي بسرت ومدحة العياشي في رحلة العطش(ماء الموائد١٠٥٦ \١٠٦٤)هجرية بأن قال قهر الأعراب وتوود إليه الأتراك وعم الأمان لطرق القوافل إلي دول جنوب الصحراء والسودان وكان سببا لحقد الجميع عليه.

باشر كوبريللي عمله في ٢٦ ذي القعدة ١٠٦٦هـ ١٥سبتمبر ١٦٥٦م، وأعلن أن السلطان محمد قد بلغ سن الرشد، وانتهت بذلك نيابة السلطانة الوالدة التي دامت خمس سنوات، وتوارت إلى الظل، ولم تتدخل في أمور السلطنة بعد أن اطمأنت أن مقاليد البلاد في يد أمينة، وانصرفت إلى أعمال الخير وتربية ولديها سليمان وأحمد وبدأ محمد باشا كوبريللي أعماله بإعادة هيبة الدولة، فضرب على يد الخارجين من الإنكشارية بيد من حديد، وأجبرهم على احترام النظام، والانشغال بعملهم والتفرغ للدفاع عن الدولة وحمايتها باعتبار أن هذا هو عملهم الأساسي ووظيفتهم الأولى، وليس لهم حق التدخل في شؤون الدولة، وكان لسياسته الحازمة وميله إلى الشدة والترهيب فيما يتصل بأمور الدولة أثره في انتظام أمورها واستتباب أمنها، ثم كلفه السلطان محمد الرابع بالدفاع عن الدولة أمام الأخطار المحدقة بها، فهزم البنادقة، وأخذ منهم جزيرة لمنوس وبعض الجزر الأخرى، وكان هؤلاء قد استولوا على هذه الجزر، واحتلوا مضيق الدردنيل، وفرضوا حصاراً بحرياً على الدولة، ومنعوا دخول

المـواد التموينيـة إلـى إسـتانبول، فارتفعت الأسـعار، وتـدهورت الحالـة الاقتصادية ، ولولا نجاح كوبريللي في فك هذا الحصار لتعرضت الدولـة إلى خطر فادح.

استمرت صدارة محمد كوبريللي خمس سنوات، ونجحت الدولـة أثنائها فـى أن تسترد عافيتها ويعود إليها بعض هيبتها القديمـة على السـاحة العالميـة، وبعد وفاتـه سنـة (١٠٧٢هـ ١٦٦١م) أصدر السلطان محمد الرابع قراراً بـأن يتـولى أحمد كـوبريللي منصب الصدارة العظمـى خلفاً لأبيه، وكان في السادسة والعشرين من عمره، ويعد أصغر من تولى هذا المنصب فـي تـاريخ الدولـة العثمانيـة، لكنـه كـان عظـيم الكفـاءة، متعدد المواهب، علـى درايـة واسـعة بالسياسـة العالميـة، ومـا إن تـولى منصبه حتى أدرك أن جبهة الدولة الخارجية تحتاج إلى جهود كثيرة منه، فترك متابعة أمور الدولة الداخلية إلى قرة مصطفى باشا، وتحرك هو إلى إعلان الحرب على النمسا التي انتهزت فرصة انشغال الدولـة العثمانيـة بأمورها الداخلية المضطربة، فاعتدت على حدود الدولة، وبنت عليها قلعة حربية، على الرغم من مخالفة ذلك للمعاهدة المعقودة بينهما، لكنها لم تستجب لنداءات الدولة العثمانية المتكررة.

تحرك الصدر الأعظم من أدرنة على رأس جيش هائل يبلغ نحو ١٢٠ ألـف جنـدي، مـزودين بالمـدافع والـذخائر والعتـاد، حتـى وصـل إلـى قلعـة

نوهزل الشهيرة، وكانت تقع شمال غرب بودابست، على الشرق من فيينا بنحو ١١٠ كم، ومن براتسلافيا بنحو ٨٠ كم، وكانت بالغة التحصين، فائقة الاستحكامات حتى أصبحت من أقوى القلاع في أوروبا، وما إن وصل كوبريللي إلى القلعة حتى ضرب عليها حصاراً قوياً دام سبعة وثلاثين يوماً، اضطرت القلعة بعدها إلى طلب الصلح والاستسلام، فوافق الصدر الأعظم، شريطة جلاء الحامية عن القلعة بغير سلاح ولا ذخيرة، فدخلها في٢٥ صفر ١٠٧٤هـ - ٢٨ سبتمبر ١٦٨٣م، وبعد استسلام هذه القلعة العظيمة استسلمت حوالي ٣٠ قلعة نمساوية، واضطرت النمسا إلى طلب الصلح، ودفعت للدولة العثمانية غرامات حرب قدرها ٢٠٠ ألف سكة ذهبية، وأن تبقى كافة القلاع التي فتحتها الجيوش العثمانية تحت سيادتها، وعاد كوبريللي إلى أدرنة مكللا بالنصر في ٢ رمضان ١٠٧٥هـ ١٧ مارس ١٦٦٥م.

ولم يكد يمضي سنتان على هذا النصر حتى كلف السلطان محمد الرابع قائده المظفر أحمد باشا كوبريللي باستكمال فتح جزيرة كريت التي فتحها السلطان إبراهيم الأول لكن ظلت قلعة كانديه وبعض القلاع بالجزيرة تقاوم العثمانيين بسبب المساعدات التي تتلقاها من بلاد أوروبا.

تحرك كوبريللي على رأس أسطول بحري إلى جزيرة كريت، وضرب حصاراً حول كانديه في رمضان ١٠٧٧هـ مارس ١٦٦٧م ودام الحصار

نحو سبعة أشهر صمدت خلالها القلعة ثم عاود الحصار مرة أخرى في ٨ محرم ١٠٧٩هـ ١٨ يونيو١٦٦٨م لكنه طال هذه المرة، حتى تجاوز العامين، وفي النهاية تنازلت البندقية عن كانديه بما فيها من مدافع وأسلحة للدولة العثمانية، وأصبحت كريت تابعة للدولة العثمانية، وقضى كوبريللي وقتاً بعد الفتح في إصلاح القلاع والأسوار والأبنية، ثم غادر الجزيرة بعد أن ظل بها ثلاث سنوات ونصف .

وفي أثناء تولي كوبريللي الصدارة العظمى دخلت بلاد القوقاز جنوبي روسيا في حماية الدولة العثمانية، فلما حاولت بولونيا الاعتداء على بلاد القوقاز استنجدت بالدولة العثمانية التي تحركت على الفور لنجدتها، وأجبرت ملك بولونيا على طلب الصلح.

نشبت الحرب مع روسيا بسبب الصراع حول أوكرانيا فغادر السلطان محمد الرابع وقرة مصطفى باشا الصدر الأعظم الذي تولى المنصب بعد وفاة كوبريللي إستانبول على رأس حملة هائلة هي الحملة الأولى لسلطان عثماني على روسيا في ٨ ربيع الأول ١٠٨٩هـ ٣٠ مارس ١٦٧٨م، حتى بلغت قلعة جهرين في أوكرانيا، فضربت حولها حصاراً، وكانت قلعة محصنة، وكان يدافع عنها جيش روسي ضخم يقدر بمائتي ألف جندي، لكن القلعة سقطت بعد اثنين وثلاثين يوماً، وقُتل من الجيش الروسي ٢٠ ألف جندي، ثم عاود السلطان محمد الرابع حملة ثانية على روسيا بعد

عامين من حملته الأولى، لكنها انتهت بعقد معاهدة أدرنة بين الدولتين واتفق الطرفان على أن تقسم أوكرانيا بين العثمانيين والروس، على أن يكون القسم الأكبر من البلاد تحت الحكم العثماني، وأن تستمر روسيا في تقديم الضريبة السنوية إلى بلاد القرم التابعة للعثمانيين، وأن تدفع المبالغ المتراكمة عليها خلال سنوات الحرب مرة واحدة.

كانت الدول الأوروبية قد تألبت على الدولة العثمانية وأفزعها ما بلغته من قوة، فأخذت تتحرش بها، وكانت النمسا تقف في مقدمة الدول المناوئة لها، فاتخذت الدولة قرارها بتوجيه ضربة قوية للنمسا حتى تكف يدها عن التدخل في شئون المجر التي كانت خاضعة للدولة العثمانية.

وفي ١٩ رجب ١٠٩٤هـ ١٤ يوليو ١٦٨٣م وصل الجيش العثماني بقيادة قرة مصطفى باشا إلى فيينا، وضرب عليها حصاراً شديداً، استمر الحصار شهرين تهدمت أثنائه أسوار المدينة المنيعة، واستشهد آلاف العثمانيين الطامعين في نيل شرف الفتح، وانزعج البابا بعد أن أدرك خطورة الموقف، وتحركت أوروبا لنداءاته، وجاءت الإمدادات والمساعدات إلى فيينا، واستطاعت أن تعبر جسر الدونة إلى المدينة المحاصرة، وكان الإقدام على هذا العمل خطورة كبيرة لأن الجسر كان تحت سيطرة العثمانيين، لكن المكلف بحماية الجسر لم ينسفه عند مرور هذه القوات وتركها تعبر في سلام إلى المدينة، في واحدة من أكبر

الخيانات التي شهدها التاريخ العثماني، ولما نشب القتال انهزم العثمانيون وفكوا حصارهم عن فيينا ودقت كنائس فيينا أجراسها فرحة بهذا النصر، وجاوبتها كافة أجراس العالم المسيحي.

نهاية السلطان محمد اخر الفاتحين (فترة النكبات)

تلقى محمد الرابع أنباء هذه الهزيمة المدوية ولم يفعل شيئًا سوى أن بعث بمن قتل الصدر الأعظم الكفء قرة مصطفى باشا تحت تأثير بعض الوشاة والكارهين للصدر الأعظم وبدأ روان يسترد بعض ما فقدته الدولة في المجر، لكنه لم ينجح، وتلقى صدره الأعظم سليمان باشا هزيمة منكرة في سهل موهاكس أمام التحالف المقدس وكان من نتائج الهزائم المتتابعة التي لحقت بالدولة العثمانية في أواخر عهد محمد الرابع أن ثار الجيش في وجهه، وقام بخلعه بعد أن دامت سلطنته نحو أربعين سنة، وكانت الدولة في تاريخ خلعه قد فقدت كثيراً من أراضيها للبنادقة والنمساويين، وتولى بعده أخوه سليمان الثالث، ودخلت الدولة العثمانية في عصر توقف الفتوح.